بولس في الفردوس رؤيا، إيحاء، أم انتقال؟

القس عيسى دياب

كتب بولس عن هذا الاختبار

(٢ كو ١٢: ١-٥):

«إنه لا يوافقني أن أفتخر. فإني آتي إلى مناظر الرب وإعلاناته. أعرف إنساناً في المسيح، قبل أربع عشرة سنة، أفي الجسد، لست أعلم، أم خارج الجسد لست أعلم، الله يعلم. اختُطِف هذا إلى السماء الثالثة. وأعرف هذا الإنسان، أفي الجسد أم خارج الجسد لست أعلم، الله يعلم. أنه اختطف إلى الفردوس وسمع كلمات لا يُنطق بها ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها. من جهة هذا أفتخر. ولكن من جهة نفسي لا أفتخر إلاّ بضعفاتي.»[1]

١- مقدّمة

ينقل لنا هذا النص اختباراً روحياً مميَّزاً مر فيه بولس، لكنه، في نفس الوقت، يفرض على القارئ كثيراً من الأسئلة المهمة. يعبِّر بولس نفسه، عن عجزه في الحكم على بعض التفاصيل المهمة، فيقول: «أفي الجسد؟ لست أعلم، أم خارج الجسد؟ لست أعلم، الله يعلم».

هذا من جهة بولس، أما من جهتنا نحن القرّاء والدارسين، فنطرح أسئلة أكثر:

- من هو الشخص الذي مرّ في هذه الخبرة الروحية ؟
- ما هي «مناظر الرب وإعلاناته» ؟
- متى وفي أية ظروف حدث هذا الحدث ؟
- ما هي السماء الثالثة أو الفردوس ؟ وما هو مصدر هذا التعليم ؟

٢- الشخص الذي مرّ في هذه الخبرة الروحية ؟

يوحي النص للقارئ بأنه ليس من الصعب تحديد هوية الشخص المعني بهذا الاختبار، فمن يتكلم عن اختباراته وصعوباته وتضحياته من أجل الإنجيل هو بولس نفسه (٢ كو ١١: ٢٣-٣٣) الذي يتكلّم بصيغة المفرد. لكن الصعوبة تكمن في أنه، عندما يتكلم عن «اختطافه إلى الفردوس»، يستعمل صيغة الغائب. ومما يعزز الرأي القائل بأن الشخص المعني هو بولس، هو أنه يذكر الوقت بدقة، يتذكر المشاهد والكلمات، مع أنه لا يعبر عنها؛ ثم أنه يُعلِّق هذا الاختبار بـ «شوكة في الجسد» (آ ٧). إن هذا الشخص هو «إنسان في المسيح»؛ فإن كان حقاً الرسول بولس هو الشخص المقصود، فإنه ينسب إلى نفسه هذه التسمية للدلالة على أن هذه الخبرة الروحية المميزة تنتمي حصرا إلى حياته الباطنية «المستترة مع المسيح في الله» (كول ٣: ٣). لقد حدث له هذا «الاختطاف» لأنه كان يعيش اختباراً صوفياً بالمسيح (أنظر غل ٢: ٢٠). عندما يعدِّد بولس، في إطار تعداد نِعَم الرب المتنوعة له، التجاربَ والصعوبات التي خاضها في خدمته، نراه يستعمل صيغة المتكلم، وعندما يصل إلى قمة النعم والبركات: الرؤى والإيحاءات، تلك التي تستدعي افتخاراً أكبر لأنها تحدث فقط للخاصة، ينتقل من صيغة المتكلِّم إلى صيغة الغائب ليموِّهَ هوية الشخص المقصود درءاً لخطر الافتخار واعترافا منه بأن حصوله على هذا الاختبار لم يأتِ نتيجة مجهود شخصي، إنما بإرادة علوية وقصد إلهي.

١- النصوص البيبلية في هذه المقالة هي بحسب ترجمة فاندايك البستاني.

٣- مناظر الرب وإعلاناته

إن خصوصية وعمق وقوة هذه الخبرة استولت على وعي بولس لدرجة أنه فقد هذا الوعي الحسي مستسلما لوعي روحي تماما كما يحدث للنائم في الحلم، يفقد الاتصال بالمحسوسات التي حوله، ليدخل في عالم الحلم الذي يمر به. فبولس فقد وعيَه الأرضي، حتى أنه استحال عليه معرفة ما إذا كان وعيُ النفس الروحي بقي متصلا بالجسد، لذلك يقول: «أفي الجسد أم خارج الجسد، لست أعلم». ولم يميز ما إذا كان لحواسه دورٌ فيما رأى من مشاهد وسمع من كلمات.

أسئلة كثيرة تُطرح لمعرفة حقيقة ما جرى. من المؤكد أن الرسول دخل في غيبوبة روحية / نفسية، فرأى خلالها صوراً مذهلة تندهش لها العيون والعقول، وسمع كلماتٍ رائعة تطرب لها الآذان والمسامع. وعندما خرج من الغيبوبة، لم يعرف ماذا جرى فعلاً، حتى أنه، بالرغم من تذكره الصور والكلمات، لم يستطع أن يعبِّر عنها. هل لأن الصور لم تكن واضحة، والكلمات لم تكن مفهومة؟ أم لأنه لا يملك المفردات التي تستطيع أن تنقل ما شاهد وما سمع بأمانة ودقة؟ أم لأن في الأمر سراً لا يجوز أن يبوح به بولس، أو لأن الرؤيا مختومة ولا يجوز فك الختم (دا ١٢: ٤؛ رؤ ١٠: ٤)؟ نستبعد هذا الاحتمال الأخير، ويشدنا الاحتمال الثاني إليه. تظن م. ماكدونالد أن الطابع السري للطريقة التي مرَّ بها هذا الحدث، يندرج في إطار عدم إعطاء بولس أهمية لهذا الحدث ولغيره من الأحداث المماثلة[٢]. يظن م. هارِّيس أن السبب في عدم كشف الرؤيا، هو أنها رسالة من الله موجهة إليه شخصيا، من أجل نموه الروحي، ولإمداده قوة يواجه بها أمراضه وأتعابه[٣]. ونحن نميل إلى هذا الرأي الأخير.

إن الكلمتين اليونانيتين المترجمتين، «مناظر وإعلانات»، ينمّان عن أمرين مختلفين، بمعنى أن المناظر أم الرؤى تحدث في وعي الإنسان الباطني، فتتصوَّر له صورٌ، كما في الرؤيا التي تراءت لبطرس وحملت إليه رسالة تأمره بالذهاب إلى بيت كرنيليوس، الضابط الأممي (أع ١٠: ٩ ي). بينما الإعلانات رسائل واضحة مرسلة بواسطة كلمات، كما في اختبار بولس على طريق دمشق (أع ٩: ١ي ؛ ٢٧: ٢٣ ي). ونجد النوعين : الرؤى والإعلانات، مجتمعَين في تقرير كاتب الأعمال: «فقال الرب لبولس برؤيا في الليل: لا تخف بل تكلم ولا تسكت» (أع ١٨: ٩).

نستطرد هنا لنتكلم باختصار شديد عن مفهوم الرؤى والإعلانات في العهد الجديد؛ فمن المفسرين من يعتقد أنها صور ورسائل ماورائية (ميتافيزيقية) تحدث فعلا للشخص، ويكون بإمكان الرائي أن يصور المشاهد ويسجل الكلام لو كان يملك حينها الوسائل التقنية المطلوبة. فلا مانع عند هؤلاء من تفسير هذا الحدث على أنه انتقال مادي، اختطاف بالجسد، إلى الفردوس (رج ١تس ٤: ١٧)، ويكون الحاصل اختباراً شبيهاً بالإسراء والمعراج في الإسلام[٤].

وهناك مفسّرون آخَرون يركزون على المنهجية التاريخية، فيرفضون إمكانية حصول هذه الرؤى والإعلانات كحدث ميتافيزيقي، ويفسرونها على أنها عوامل نفسية / روحية تحدث في وعي الإنسان الباطني أو في مخيّلته واعتقادنا هو أنه ليس المهم في هذا الموضوع الآلية التي وصلت بها الرسالة، خارجية كانت أم داخلية، بل الرسالة نفسها. ولذلك، نحن نشدد على المعنى اللاهوتي للحدث أو للرسالة، تاركين للقارئ حرية الاختيار بين الطريقتين المذكورتين أعلاه لإيصال الرسالة إلى الشخص المعني.

٤- ظروف الحدث

يُفيد بولس أن الرؤية حدثت له قبل أربع عشرة سنة، فإذا اعتمدنا سنة ٣٦ كتاريخ كتابة الرسالة، كما هو مقبول عموما، تكون الرؤيا قد حدثت له سنة ٤٣. وإذا اعتبرنا أن بولس اهتدى سنة ٣٥، ثم ذهب إلى العربية، وبعد ثلاث سنين من اهتدائه (سنة ٣٨)، ذهب إلى اورشليم، بعدها اختفى عن الساحة وذهب ليعيش في طرسوس. وفي وقت ما، استُدعي للخدمة في إنطاكية، وبعد أربع عشرة سنة (سنة ٤٦ أو ٤٩) ذهب مرة ثانية إلى اورشليم (غل ١ ١٧-١٨؛ ٢: ١)، أي أن الرؤيا حدثت في الفترة التي كان فيها في طرسوس، يكن بعد على مسرح أحداث الخدمة لذلك، لا يمكن أن ننسبها إلى أي من الأحداث المذكورة في سفر الأعمال.

٢- Margaret MACDONALD, "2 Corinthians", in John BARTON & John MUDDIMAN, *The Oxford Bible Commentary* (Oxford: Oxford University Press, 2000) 1149.

٣- Murray HARRIS, "2 Corinthians", in Frank GAEBELEIN (Ed.), *The Expositor's Bible Commentary* (Grand Rapids 1976) X. 395.

٤- أخبر الرسول محمد أتباعه بأنه في ليلةٍ ما أسريَ به إلى السماء وعرّج في طريقه على المسجد الحرام في بيت المقدس وعاد إلى مكانه قبل طلوع الصبح

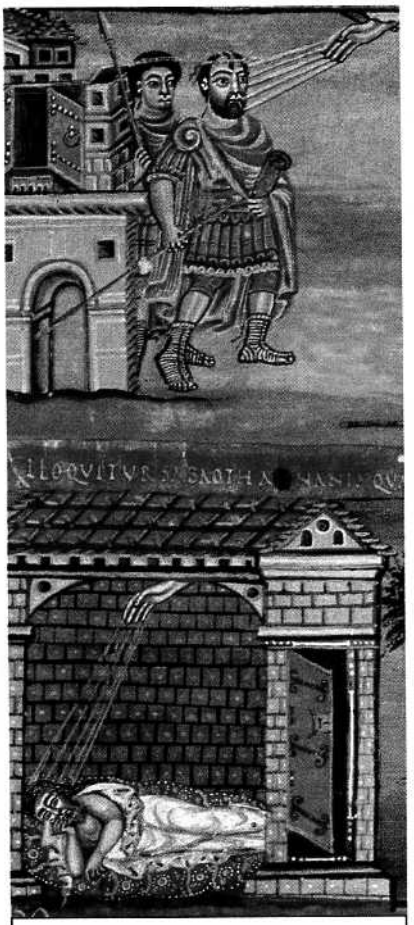

للرؤى والإيحاءات دورٌ هامّ في حياة بولس ورسالته، على مثال أنبياء العهد القديم.
[في هذا الرسم نرى مشهدَيْن: ظهور الربّ لشاول على طريق دمشق، وتلقّي حَنَانْيا تعليمات هرب في حلم (رؤيا) بشأن شاول]
(مخطوط من القرن التاسع)

بولس يدافع عن رسوليته، تجاه جمهور أراد اغتصابها منه. يظهر أن الرؤى والاعلانات الماورائية كانت تُقدم كبراهين على صحة رسولية الرسول وصدق الدعوة. يظهر هذا الأمر واضحاً في الديداخي؛ فالخدام الذين يتمتعون بمواهب كاريسماتية كانوا يستقطبون دهشة وإكرام المؤمنين[٥]. غير أن بولس، بالرغم من أنه يقدمها لقارئيه باختصار كلي، لا يستعملها كبرهان على صدق دعوته الرسولية. براهين بولس هي أفعاله وتعاليمه في الكنائس المختلفة، بالإضافة إلى نتائج خدمته (آ ٦-٧).

من الصعب تحديد الحقبة من حياة الرسول بولس التي حدثت له فيها هذه الخبرة الروحية. فالأربع عشرة سنة المذكورة في آ ٢، لا تدل عن أي حدث في حياة بولس نقله إلينا كاتب سفر الأعمال. ما نستطيع أن نجزم فيه هو أن الرؤيا ليست هي التي حدثت له على طريق دمشق، لأن كُلاً من المشهد والوقت والظروف والكلمات والصور في هذه الرؤيا مختلفة.

٥- السماء الثالثة أو الفردوس

بينما كان بولس غير متأكد من المشاهد والكلمات، كان متأكداً من المكان، مسرح المشاهدات: السماء الثالثة أو الفردوس. في حين لا يوجد نص يفيدنا بماهية السماء الثالثة، أو بأنها هي الفردوس، في سائر أسفار الكتاب المقدس من القانونية الأولى والقانونية الثانية، لا نشك في أن الكاتب استقى معلوماته من الأسفار اليونانية وكتابات ما بين العهدين[٦]. لقد ميزت اليهودية، التي كانت سائدة في عصر بولس، بين الفردوس الأول (تك ٢ و٣) والفردوس الأخيري (رؤ ٢: ٧)، والفردوس السرّي الذي يسود ما بين الفردوسين (لو ٢٣: ٤٣؛ ٢ كو١٢: ٤)، وهو المقصود في هذه الرؤيا. فالفردوس السرّي، بحسب الفكر اليهودي، هو في الوقت الحاضر مركز إقامة الموتى الأتقياء. تأثرت اليهودية الرّبية في بداياتها بالفكر الفارسي القديم، وبموجبه تقسم السماء إلى طبقات متعددة. لم يكن بولس هو أوّل من تكلم عن «اختطاف بالجسد إلى الفردوس»، فلنا في شخص أخنوخ مثال، أُفيد عنه بأنه حُمل بالجسد إلى الأماكن السماوية، ثم أُعيد إلى الأرض (١ أخنوخ ١٢: ١ ي؛ ٧١: ١ ي). وأربعة من الربّيين اليهود (القرن الثاني للميلاد)، وآخرون أصغر من بولس بجيلين، جميعهم زعموا بأنهم دخلوا الفردوس[٧].

٦- خاتمة

وفي النهاية، مهما كان قد حدث مع بولس، فهو لا يستعمله لافتخاره الذاتي ولاستعلائه على أخوته وزملائه في الخدمة. إن الرؤى والإعلانات، والمواهب الروحية، إن أُعطيت لنا هي من أجل تشجيعنا وبنيان إنساننا الروحي، ويجب أن نحيدها عن الاستعمال الرخيص أو الاعتداد بالذات أو الادعاء بروحانية تميزنا عن الآخرين.

٥- الديداخي ١١-١٣.

٦- ٢ أخنوخ ٧ و ٨ :٢؛ رؤيا موسى ٣٧: ٥.

٧- F. F. Bruce, *Paul Apostle of the Free Spirit* (Exeter: The Paternoster Press, 1977, ٥1988) 135.